إسرار

إنَّ نَصيحةَ السُّلْطانِ مِنَ المَنَابِرِ
والمَحَافِلِ والصُّحُفِ السَّيَّارَاتِ
لَيْسَ مِنَ النُّصيحةِ، بَلْ فضيحةٌ
على الحقيقةِ؛ لأنَّها تُغْرِيهِمْ
بالتَّمادي على أَمْرِهِمْ لَجَاجًا[1] وحَرَدًا[2].

قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «أَفْضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائرٍ». أَوْ: «أَمِيرٍ جائرٍ»[3].

فـ«عِنْدَ» تُفِيدُ الظَّرْفِيَّةَ المكانيَّةَ أَيْ: عِنْدَ السُّلْطانِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، مَعَ الرِّفْقِ؛ إِذْ لَيْسَ سُلْطانُكَ بشَرٌّ مِنْ فِرْعَوْنَ، ولا أَنْتَ بأَفْضَلَ مِنْ مُوسَى -عليه السلام-.

ولْتَكُنِ النَّصيحةُ فيما بَيْنَكَ وبَيْنَ سُلْطَانِكَ، كما فَعَلَ سَلَفُكَ؛ فإِنَّهُ يَسَعُكَ ما وَسِعَهُمْ.

فَقَدْ قِيلَ لأُسامةَ - رضي الله عنه -: «أَلَا تَدْخُلُ على عُثْمَانَ فَتُكَلِّمَهُ؟. فقال: أَتَرَوْنَ أَنِّي لا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟!، واللهِ، لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فيما بَيْنِي وبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَتِحَ أَمْرًا لا أُحِبُّ أَنْ أكونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ[4]»[5].

وها هُوَ النَّبيُّ - ﷺ - يَضَعُ إشارةً على طريقِ مَنْ أراد نصيحةَ سُلْطانِهِ - بقَوْلِهِ: «مَنْ أراد أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطانٍ بأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، ولكِنْ لِيَأْخُذْ بيَدِهِ، فَيَخْلُو به، فإِنْ

---

(١) الحَرَدُ: كالغَضَبِ زِنَةً ومعنىً.

(٢) اللَّجاج - بالفتح -: الخصومة.

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٤٣٤٤) عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٣٦٥٠).

(٤) قال الأَلْبانيُّ - رحمه الله - في التعليق على هذا الحديث: «يَعْني المُجاهرةَ على الأُمَراءِ في المَلَإِ؛ لأَنَّ في الإنكارِ جهارًا ما يُخْشَى عاقبتُهُ، كما اتفق في الإنكارِ على عُثْمانَ جهارًا، إِذْ نَشَأَ عَنْهُ قَتْلُهُ».

(٥) رواه البُخاريُّ (٣٢٦٧،٧٠٩٨)، ومسلم (٢٩٨٩) - واللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أُسامةَ - رضي الله عنه -.

قَبِلَ مِنْهُ فَذاك، وإلَّا كان قَدْ أدَّى الَّذي عليه لَهُ»[١].

وَرَحِمَ اللهُ ابْنَ الورديِّ القائلَ:

جانِبِ السُّلْطَانَ، واحْـذَرْ بَطْشَهُ لا تُـعـانِـدْ مَـنْ إذا قـالَ فَـعَـلْ

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّة:

قال الإمامُ أحمدُ – رحمه الله –: «لايُتَعَرَّضْ للسُّلْطانِ؛ فإنَّ سَيْفَهُ مَسْلُولٌ[٢]».

«الآداب الشَّرْعيَّة» (١/ ١٩٧).

(١) (صحيح) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٣-٤٠٤) وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦،١٠٩٧) من حديث عياض بن غنم - رضي الله عنه - وصحَّحه الألْبانيُّ في «ظلال الجنَّة».

(٢) مَسْلُول: مُنْتَزَعٌ مِنْ غِمْدِهِ، وقَدْ سَلَّ سَيْفَهُ مِنْ باب رَدَّ.

obeikandl.com

سِـرٌّ

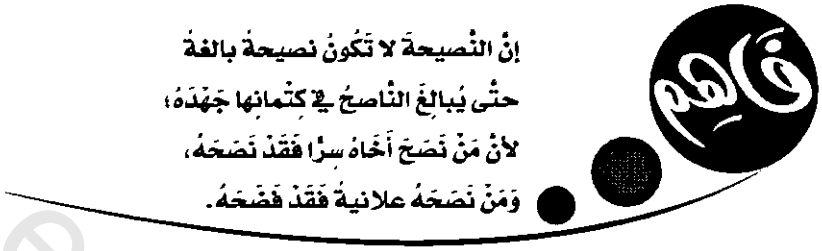

وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ العُلَماءَ المُرَبِّينَ يُدْرِكُونَ عاقبةَ كِتْمانِ النَّصيحةِ، ويُدْرِكُونَ ـ أيضًا ـ غِبَّ إعلانِها، وقَلَّ أَنْ تَجِدَ عالمًا عاملًا إلَّا وَهُوَ يُسِرُّ النَّصيحةَ[1].

قال ابنُ المُبارَكِ ـ رحمه الله ـ: «كان الرَّجُلُ إذا رَأَى مِنْ أَخِيهِ ما يَكْرَهُ، أَمَرَهُ في سِتْرٍ، ونهاه في سِتْرٍ، فَيُؤْجَرُ في سِتْرِهِ، ويُؤْجَرُ في نَهْيِهِ، فأمَّا اليَوْمَ فإذا رَأَى أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ ما يَكْرَهُ، اسْتَغْضَبَ أَخَاهُ، وهَتَكَ سِتْرَهُ»[2].

وعَنْ سُفيانَ قال: «جاء طَلْحَةُ إلى عَبْدِ الجَبَّارِ بْنِ وائلٍ ـ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ ـ فسارَّهُ بشيءٍ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

فقال: أَتَدْرُونَ ماذا قال لي؟.

قال: رَأَيْتُكَ الْتَفَتَّ أَمْسِ وأَنْتَ تُصَلِّي»[3].

---

(١) قَدْ تَكُونُ هُناكَ حالاتٌ نادرةٌ تَسْتَلْزِمُ إعلانَ النَّصيحةِ بَعْدَ إسرارِها: كأَنْ يَكُونَ هُناك شخصٌ يُجاهرُ بالمُنْكَراتِ، فَيُسَرُّ لَهُ، فإذا لم يَقْبَلْ تُعْلَنُ النَّصيحةُ؛ حتَّى لا يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّ هذا لَيْسَ بمُنْكَرٍ؛ لأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ إنكارَ أَحَدٍ.

وغَيْرِ ذلك مِنَ الأُمُورِ الَّتي يَعْرِفُها العُلَماءُ، ويَعْرِفُون المصالحَ والمفاسِدَ، وليس هُنا محلُّ بَسْطِها، ومَكَانُّ ذلك كُتُبُ «الأَمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ»، على أَنَّها حالةٌ نادرةٌ، وإلَّا فالأَصْلُ الإسرارُ.

(٢) «روضة العقلاء» (ص٣٢٩).

(٣) المرجع السابق (ص٣٢٩).

ومن درر المثقب العَبْدي:

فَـإِمَّـا أَنْ تَـكُـونَ أَخِـيْ بِـحَـقٍّ ... فَـأَعْـرِفُ مِـنْكَ غَـثِّـيْ مِـنْ سَمِيْنِي
وَإِلَّا فَـاطَّـرِحْـنِـي واتَّخِـذْنِيْ ... عَـدُوًّا اتَّـقِـيـكَ وتَـتَـقِـينِـي
وَإِنِّيْ لَـوْ تُـعَـانِـدُنِيْ شِـمَالِيْ ... عِـنَـادَكَ مَـا وَصَـلْـتُ بِهَـا يَمِينِي

وقال يَحيَى بْنُ مَعِين ـ رحمه الله ـ: «خَطَأُ عفَّانَ في نَيِّف[1] وعِشْرينَ حَديثًا، ما أَعْلَمْتُ بِهِ أَحَدًا، وأَعْلَمْتُهُ فيما بَيْني وبَيْنَهُ، ولَقَدْ طَلَبَ إلى خَلَفُ بْنُ سالم أَنْ أَذْكُرَها، فما قُلْتُ لَهُ، وما رَأَيْتُ على رَجُلٍ ـ قَطُّ ـ خَطَأً إلَّا سترتُهُ، وما اسْتَقْبَلْتُ رَجُلًا في وَجْهِهِ بما يَكْرَهُ، ولكنْ أُبَيِّنُ لَهُ خَطَأَهُ، فإنْ قَبِلَ، وإلَّا تَرَكْتُهُ»[2].

وَمِن دُرَرِ العلَّامةِ ابنُ حَزْمٍ:

«إذا نَصَحْتَ فانْصَحْ سِرًّا لا جَهْرًا، وبتَعْريضٍ لا تَصْريح، إلَّا لِمَنْ لا يَفْهَمُ فَلا بُدَّ مِنَ التَّصْريحِ لَهُ، ولا تَنْصَحْ على شَرْطِ القَبُولِ مِنْكَ، فإنْ تعدَّيتَ هذِهِ الوجوهَ، فأنتَ ظالمٌ لا ناصِحٌ، وطالبُ طاعةٍ ومُلْكٍ لا مُؤَدِّي حقٍّ أمانةً وأُخُوَّةً، ولَيْسَ هذا حُكْمَ العَقْلِ، ولا حُكْمَ الصَّداقةِ، لكنْ حُكْمَ الأَمِيرِ مَعَ رَعِيَّتِهِ، والسَّيِّدِ مَعَ عَبْدِهِ»[3].

ولله دَرُّ الشَّافعيِّ حينَ قال:

تَـعَـمَّـدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْـفِـرادِي ... وجَـنِّـبْـنِـي النَّصيحةَ في الجَـماعَـهْ
فـإنَّ الـنُّـصْـحَ بَـيْنَ الـنَّـاسِ نَـوْعٌ ... مِـنَ التَّوبيخِ لا أَرْضَى استماعَهْ
فـإنْ خالَفْتَنِي وعَـصَـيْـتَ قَـوْلِي ... فـلا تَجْـزَعْ إذا لَمْ تُـعْـطَ طـاعَـهْ[4]

---

(١) النَّيِّفُ ـ بالفَتْح و المثَقَّلةُ أَفْصَحُ مِنَ المُخَفَّفةِ ـ: العَدَدُ الَّذي بَيْنَ عِقْدَيْنِ.
(٢) «تهذيب التَّهذيب» (١١/ ٢٥٠).
(٣) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٢ ـ ١٢٣).
(٤) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص١١٣).

كلماتٌ نُورانيّة :

قال ابنُ حبّانَ — رحمه الله —:

«علامةُ النَّاصحِ ـ إذا أراد زينةَ المَنْصُوحِ لَهُ ـ أَنْ يَنْصَحَهُ سِرًّا، وعلامةُ مَنْ أراد شَيْنَهُ أَنْ يَنْصَحَهُ علانيةً» «روضة العقلاء» (ص٣٢٩).

obeikandl.com

إبَرُ النَّخلِ

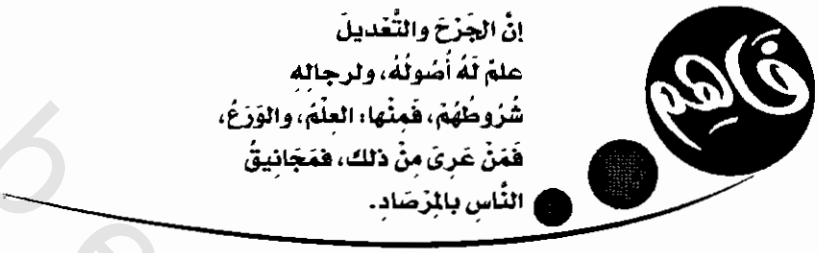

قَدْ كان السَّلَفُ ـ رِضْوانُ اللهِ عَنْهُمْ ـ يَخَافُونَ مِنْ دَعْوةِ المَظْلُومِ، مَعَ تَسَنُّمِهِمْ[٢] ذِرْوَةَ[٣] سَنَامِ هذا العِلْمِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَصْدٍ سِوَى الذَّبِّ عَنِ الدِّينِ تَحْرِيفَ الغالين، وانتحالَ المُبْطِلِينَ، وتَأْوِيلَ الجاهلينَ، وَمَعَ ذلك كان خَوْفُهُمْ لَيْسَ كخوفِنا نَحْنُ، وأَيْنَ نَحْنُ مِنْهُمْ؟!.

يَقُولُ أَبُو الرَّبِيعِ محمَّد بْنُ الفَضْلِ البَلْخِيُ ـ رحمه الله ـ:

سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يقولُ: «إنَّا لَنَطْعَنُ على أَقْوامٍ لَعلَّهُمْ قَدْ حَطُّوا رِحَالَهُمْ في الجَنَّةِ مِنْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ».

قال ابنُ مهرويه: «فَدَخَلْتُ على عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنِ أبي حاتم ـ وَهُوَ يَقْرَأُ على النَّاسِ كتابَ الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ ـ فحدَّثْتُهُ بهذا، فبكَى وارْتَعَدَتْ يَدَاهُ، حتَّى سَقَطَ الكِتَابُ مِنْ يَدِهِ، وَجَعَلَ يَبْكي ويَسْتَعِيدُني الحِكايةَ»[٤].

فيا أخي، الكَلَامُ في الرِّجالِ عَقَباتٌ، وأَيُّ عَقَباتٍ؟!، فإنْ كُنْتَ ـ لابُدَّ ـ فاعلًا

---

(١) **المجانيق:** جَمْعُ مَنْجَنِيقٍ ـ بالفتح ـ ، وهي آلَةٌ تُرْمَى بها الحِجَارةُ، كانوا يَسْتعملُونها في الزَّمَنِ الماضي، ولمَّا ظَهَرَتِ المدافعُ أَغْنَتْ عنها. والمُرادُ: أنَّ دَعْوتَهُمْ صائبةٌ؛ لأنَّ دَعْوَةَ المَظْلُومِ لا تُرَدُّ.

(٢) **تَسَنَّمَ الشَّيءَ:** عَلَاهُ.

(٣) **ذِرْوة الشَّيْءِ ـ** بالضَّمِّ والكَسْرِ ـ : أَعْلَاهُ، والجَمْعُ ذُرا.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٩٥).

فبحَقِّه وإلَّا فَلا، فَانْجُ بنَفْسكَ، ولا إخالُكَ ناجيًا.

فَإنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذي عَظِيمَةٍ ... وإلَّا فَانِّي لا إخَالُكَ نَاجِيا

قال الإمامُ ابنُ ناصرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِي — رحمه الله —:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، إنَّ في مجالِ الكلامِ في الرِّجالِ عَقَبَاتٍ، مُرْتَقِيها على خَطَرٍ، ومُرتقيها هوى لا مَنْجَى لَهُ مِنَ الإثمِ ولا وَزَرَ[١]؛ فَلَوْ حاسَبَ نَفْسَهُ الرَّامي أَخاهُ: ما السَّبَبُ الَّذي هاج ذلك، لتحقَّق أَنَّهُ الهَوى الَّذي صاحِبُه هالكٌ»[٢].

واعْلَمْ أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ غَفْلَةٌ نَتيجةَ سَوابِقَ تَمْنَعُهُ مِنْ رُؤْيَةِ الحقِّ، فيَظُنُّ أَنَّ غَيْرَهُ هُوَ الصَّوابَ، فلا تَعْجَلْ عَلَيْهِ، ومَتَى عَجِلْتَ عليه، تعجَّلَ الدُّعاءَ واسْتَرْوَحَ إليه.

ورُبَّما كانتِ المَسْأَلَةُ لا تَحْتَمِلُ الفُرْقَةَ عِنْدَ العُلَماءِ الجَهَابِذَةِ، وهي عِنْدَ غَيْرِهِمْ مُحْتملةٌ، فيقعُ الفَأْسُ على الرَّأْسِ.

وَرُبَّ ظَلُومٍ قَدْ كُفِيتُ بِحَرْبِهِ ... فَأَوْقَعَهُ المَقْدورُ أَيَّ وُقُوعِ

فما كانَ لِي الإسلامُ إلَّا تَعبُّدًا ... وأَدْعِيَةٌ لا تُتَّقَى بِدُرُوعِ

وحَسْبُكَ أَنْ يَنْجُوَ الظَّلُومُ وَخَلْفَهُ ... سِهَامُ دُعَاءٍ مِنْ قِسِيِّ[٣] رُكُوعِ

مُرَيَّشَةً[٤] بِالهُدْبِ[٥] مِنْ كُلِّ ساهِرٍ ... مُنْهَلَّةً[٦] أَطْرَافُها بِدُمُوعِ[٧]

---

(١) الوَزَرُ ـ بالتَّحريك ـ: المَلْجَأُ والمُعْتَصَمُ.

(٢) «الرَّدُّ الوافر» (ص١٣).

(٣) القُسِيُّ ـ بكَسْر القاف وضَمِّها ـ: جَمْعُ قَوْس، وهي آلةٌ على هَيئة هِلَالٍ، تُرْمَى بها السِّهَامُ.

(٤) رَيَّشَ السَّهْمَ فَهُوَ مُرَيَّشٌ: أَلْزَقَ على مُؤَخَّرَتِه الرِّيشَ؛ لتَزِيدَ سُرْعَتُهُ.

(٥) الهُدْب ـ بالضَّمِّ وبضمَّتَيْن ـ: شَعَرُ الأَجْفان، واحدَتُها بهاء، وَجَمْعُها أَهْدابٌ.

(٦) مُنْهَلَّة: مُتَساقطَةٌ بِشدَّة، يُقَالُ: انْهَلَّ المَطَرُ، إذا اشْتَدَّ انْصِبَابُهُ.

(٧) «ديوان الشَّافعيُّ» تحقيق د/ محمَّد عبد المنعم خَفَاجي (ص١٠٩).

وَرُبَّما عَجِلْتَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ، ومَتَى تبيَّن لَهُ بَقِي في نَفْسِهِ ذلك العارِضُ، فمتى يَزُولُ؟!، وهذا ـ ونَحْوُهُ ـ يَحْصُلُ بَيْنَ أصحابِ المَنْهَجِ الواحِدِ.

بَلْ ويَحْصُلُ بَيْنَ النَظُّراءِ[1] ما هُوَ أَدْهَى مِنْ ذلك وأَمَرُّ مِنْ وَقيعةِ بَعْضِهِمْ في بَعْضٍ؛ فيَفْرَحُ العَدُوُّ، ويَسْتاءُ الصَّدِيقُ.

كمَنْ عَنَاهُمُ ابنُ الجَوزيْ ـ رحمه الله ـ **بقوله:** «يَتَزاوَرُونَ فيغتابُ بَعْضُهُمْ بعضًا، ويَطْلُبُ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ عَوْرَةَ أخيهِ، ويَحْسُدُهُ إنْ كانتْ نِعْمةٌ، ويَشْمَتُ به إنْ كانتْ مَعْصِيةٌ، ويتكبَّرُ عليه إنْ صَحَّ لَهُ، ويُخادِعُهُ لتحصيلِ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا، ويَأْخُذُ عليه العَثَراتِ إنْ أَمْكَنَ، هذا كُلُّهُ يَجْرِي بَيْنَ المُنْتَمِينَ إلى العِلْمِ والزُّهْدِ، لا الرَّعاعِ[2]»[3].

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّة:

قال الإمامُ الذَّهبيُ ـ رحمه الله ـ:

«الكَلامُ في الرِّجَالِ لا يَجُوزُ إلا لتَامِّ المَعْرِفَةِ تَامِّ الوَرَعِ»

«ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٦).

(١) النُظراء: جَمْعُ نَظِيرٍ، وهُوَ المِثْلُ.

(٢) الرَّعاع ـ بزنَةِ سَحَاب ـ: سُقَّاط النَّاس وسَفِلَتُهُمْ، الواحِدُ رَعَاعة.

(٣) «صَيْدُ الخاطِرِ» (ص٢٢٥).

obeikandl.com

دِفْءُ المَشَاعِرِ

إنْ تَذْكيرَ المُخاطَبِ بصِلَةٍ تَرْبِطُكَ بِهِ يُهَيِّجُ مَشاعِرَ القرابةِ في نَفْسِهِ، مَعَ ما فيها مِنَ الإيناسِ، وشِدَّةِ الأَسْرِ.

تَهْيِيجُ مشاعرِ القرابةِ أَنْ تُذَكِّرَ القَريبَ بصِلَةٍ تَرْبِطُكَ به دُونَ أنْ تُسَمِّيَهُ باسْمِه، قدْ تكُونُ كلمةً عابرةً، لكنَّها تَطْرَبُ لها القُلُوبُ، وتَهْتَزُّ لها المشاعرُ، وتَهْفُو إليها النُّفُوسُ.

وَهُوَ خُلُقٌ مِنْ أخلاقِ الأَنْبياءِ والصَّالحينْ.

فها هُوَ إبراهيمُ الخليلُ -عليه السلام- يَقُولُ لأبيه:

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ (مريم: ٤٢).

يَقُولُ ابنُ القَيِّم -رحمه الله-: «فابْتَدَأَ خِطَابَهُ بِذِكْرِ أُبُوَّتِهِ الَّدالَّةِ على تَوْقيرِه، ولَمْ يُسَمِّهِ باسْمِه»[1].

ويُوسُفُ -عليه السلام- يَسْتَعْمِلُ رابطةَ المُصاحبةِ في السِّجْنِ، فيقولُ لصاحبَيه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ (يوسف: ٣٩).

ونبيُّنا محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- يُخاطِبُ قَوْمَهُ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣).

أَيْ: إلَّا أَنْ تُراعُوا القَرابةَ الَّتي بَيْني وبَيْنَكُمْ، وتُوادُّوني بسببِ ذلك[2].

---

(١) انظر «بدائع الفوائد» (٣/ ١٣٣).

(٢) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَويِّ (٢/ ٦).

فإذا كان لَكَ قَريبٌ مِنْ جهَةِ الأُمِّ، أَوْ جهَةِ الأَبِ مَهْما عَلا[١]، فنادَيْتَهُ بما يُذَكِّرُهُ بصِلَةِ القرابةِ ـ فسيهتزُّ لقَولِكَ ويَطْرَبُ.

وكَمْ كان للأنصارِ مِنْ قُوَّةِ الذَّكاءِ وحُسْنِ الأَدَبِ في خِطابِهِمْ حِينَ قَالُوا لرَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ في شَأْنِ العَبَّاسِ ـ رضي الله عنه ـ: ائْذَنْ لَنَا، فَلْنَتْرُكْ لابْنِ أُخْتِنا[٢] عبَّاسٍ فِداءَهُ. فقال: «لا تَدَعُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا»[٣].

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: «قال ابْنُ الجَوْزِيِّ: وإنَّما قالُوا ابن أُخْتِنا؛ لتكونَ المِنَّةُ عليهم في إطلاقِهِ، بخِلَافِ ما لَوْ قالوا عمّكَ، لكانتِ المِنَّةُ عليه ـ ﷺ ـ، وهذا مِنْ قُوَّةِ الذَّكاءِ، وحُسْنِ الأَدَبِ في الخِطَابِ، وإنَّما امْتَنَعَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ مِنْ إجابَتِهِمْ؛ لئلَّا يَكُونَ في الدِّينِ نَوْعُ مُحاباةٍ»[٤].

---

(١) لاشَكَّ أَنَّ حُكْمَ القَرابةِ مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ لا يَخْتَلِفُ في هذا عَنِ العَصَباتِ لأدلَّةٍ، مِنْها:
ما أخرجه التِّرْمِذيُّ (٣٧٥٢) بسندٍ صحيح، صَحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح التِّرْمِذيِّ» (٢٩٥١): أَنَّهُ ـ ﷺ ـ قال في شَأْنِ سَعْدِ بْنِ أبي وقَّاصٍ ـ رضي الله عنه ـ: «هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خالَهُ».
قال أبو عيسى التِّرْمِذيُّ ـ رحمه الله ـ: «وكان سَعْدٌ مِنْ بني زُهْرَةَ، وكانتْ أُمُّ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ مِنْ بني زُهْرَةَ؛ لذلك قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: هَذَا خَالِي».
وأخرج مسلمٌ (٢٣١٥) عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: «وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلامٌ، فَسَمَّيْتُهُ باسْمِ أبي إبراهيمَ».
وأخرج التِّرْمِذيُّ (٣٨٩٤) بسندٍ صحيح، صحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح التِّرْمِذيِّ» (٢٩٥١) عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال لصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ: «إنَّكِ لَابْنَةُ نَبيٍّ، وإنَّ عَمَّكِ لنبيٌّ، وإنَّكِ لتحتَ نَبيٍّ».

(٢) قال الحافظُ ـ رحمه الله ـ في «فتح الباري» (٥/ ٤٧٤): «والمُرادُ: أَنَّهُمْ أَخْوَالُ أبيه عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فإنَّ أُمَّ العبَّاسِ هي نُتَيْلَةُ ـ بالنُّونِ والمُثَنَّاةِ مُصَغَّرةٌ ـ بِنْتُ جَنَانٍ ـ بالجيم والنُّونِ ـ، ولَيْسَتْ مِنَ الأَنْصَارِ، وإنَّما أرادُوا بذلك: أَنَّ أُمَّ عَبْدِ المُطَّلِبِ مِنْهُمْ؛ لأَنَّها سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو بْنِ أَحَيْحَةَ ـ بمُهْمَلَتَيْنِ مُصَغَّرٌ ـ، وهي مِنْ بني النَّجَّارِ، ومِثْلُهُ ما وَقَعَ في حَدِيثِ الهِجْرةِ: أَنَّهُ ـ ﷺ ـ نَزَلَ على أَخْوالِهِ بني النجارِ، وأخوالُهُ ـ حقيقةً ـ إنَّما هُمْ بنو زُهْرَةَ، وبنو النَّجَّارِ أَخْوَالُ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ». أهـ.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٥٣٧).

(٤) «فتح الباري» (٥/ ٤٧٤).

وقال ـ رحمه الله ـ: «وأراد المُصَنِّفُ ـ أي: البُخاريُّ ـ بإيرادِهِ هُنا ـ أَيْ: هذا الحديثِ ـ: الإشارةَ إلى أنَّ حُكْمَ القَرابةِ مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ في هذا لا يَخْتَلِفُ مِنْ حُكْمِ القرابةِ مِنَ العَصَباتِ، واللهُ أَعْلَمُ»[1].

أَيْـقِـظْ شُـعُـورَكَ بالمحبَّةِ إنْ غَفَا ... لَـوْلَا الشُّعُورُ النَّاسُ كانوا كالدُّمى

أَحْـبِـبْ فَيَغْدُو الـكَـوْخُ كونًا نَـيِّرًا ... وأَبْغِضْ فَيُمْسِي الكَوْنُ سِجْنًا مُظْلِما

لَـوْ تَعشقُ الـبَـيْـدَاءُ أَصْـبـحَ رَمْلُها ... زَهْـرًا، وصـار سَرابُهـا الخَـدَّاعُ ما

وَالْـهُ بِـوَرْدِ الـرَّوْضِ عَـنْ أَشْـواكِـه ... وانْسَ العَقَارِبَ إنْ رَأَيْـتَ الأَنْجُما

خُلاصَة:

مِمَّا أفادَتْني التَّجارِبُ: أَنَّهُ لا مِفْتَاحَ أَنْسَبَ لقُلُوبِ القَرابةِ مِنْ تَذكِيرِهِمْ بِصِلَةٍ تَرْبِطُكَ بِهِمْ.

(١) المرجع السَّابق (٥/ ٤٧٤).

openkandil.com

جَرْحُ المَشَاعِرِ

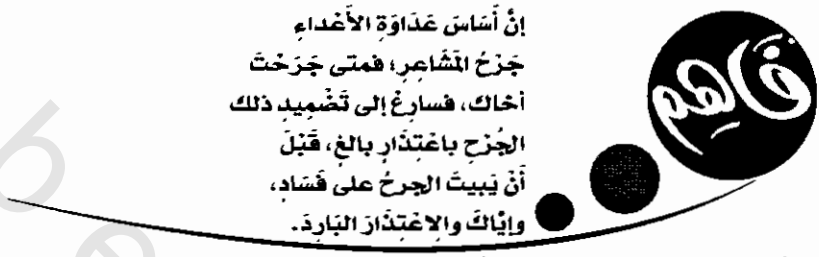

وهأنا أَسُوقُ لك بَعْضَ الفَوائد، عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَكَ بها:

اعْلَمْ أَنَّ جَرْحَكَ لأخيكَ يتولَّدُ منْهُ الغَضَبُ، والغَضَبُ وليدُهُ الحِقْدُ، ما لَمْ تُطْفِىءْ ذلك الغَضَبَ باعتذارٍ، ولا يُعْتَبُ على مَنْ خَضَعَ في اعتذارِهِ؛ فَدِيَةُ الجرحِ غاليةٌ، وعاقِبَتُها حَميدةٌ، ومَتَى غَفَلْتَ عَنِ الاعتذارِ، فالحِقْدُ حاصلٌ، ولا بُدَّ، وَمِنَ الحِقْدِ يتولَّدُ الحَسَدُ الَّذي هُوَ مَنْشَأُ العَداوةِ، وهذِهِ الثَّلاثُ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ.

يقولُ الغزاليُ - رحمه الله -:

«اعْلَمْ أَنَّ الحَسَدَ مِنْ نتائجِ الحِقدِ، والحِقْدَ مِنْ نتائجِ الغَضَبِ، فَهُوَ (أَيِ: الحَسَدُ) فَرْعُ فَرْعِهِ، والغَضَبُ أَصْلُ أَصْلِهِ - أَيْ: أَصْلُ الحِقْدِ -»[1].

وَمَتَى أَهْمَلْتَ تَضْميدَ ذلك الجُرْحِ، فاحْذَرْ صاحِبَهُ على نَفْسِكَ، ولْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَقُومُ بِهِ أَنْ تَرَى هَلْ هُوَ مِنَ الصِّنْفِ المُتسامِحِ، فَتَصِلَهُ بالإحسانِ إليهِ تارةً، وطَلَبِ الإقالةِ تارةً؟، فإذا شاهَدْتَ أَنَّ ذلك لا يَزيدُهُ إلَّا حِقْدًا «وشاهِدُ البُغْضِ اللَّحْظُ»[2] - فإيَّاكَ وإيَّاهُ.

إذا ما الجُرْحُ رُمَّ[3] على فَسادٍ ... تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّبِيبِ[4]

---

(١) «إحياء عُلُوم الدِّين» (٣/ ١٩٨).

(٢) «المنتقى من أمثال النُّبلاء» (ص٦٦) للمؤلِّف.

(٣) رُمَّ: أُصْلِحَ.

(٤) «ديوان البُحْتُرِيِّ» (١/ ١٠٠).

ولله در صالح بن عبد القدوس القائل:

إِذَا وَتَـرْتَ امْـرُءًا فَـاحْـذَرْ عَـدَاوتَـهُ مَنْ يَـزْرَعِ الشَّوْكَ لَمْ يَـحصُدْ بِهِ عِنَبَا

ومن دُرَر ابْنُ الجَوْزِيْ - رحمه الله -: «إذا آذيتَ شَخْصًا، فَقَدْ غَرَسْتَ في قَلْبِهِ عداوةً، فلا تَأْمَنْ تَفْرِيعَ تِلْكَ الشَّجْرةِ، ولا تَلْتَفِتْ إلى ما يُظْهِرُ مِنْ وُدٍّ، وإنْ حَلَفَ، فإنْ قارَبْتَهُ فَكُنْ مِنْهُ على حَذَرٍ»[1].

وقال - رحمه الله -: «لَيْسَ في الدُّنْيا أَبْلَهُ مِمَّن يُسِيءُ إلى شَخْصٍ، ويَعْلَم أَنَّهُ قَدْ بلغ إلى قَلْبِهِ بالأَذَى، ثُمَّ يَصْطَلِحان في الظَّاهِرِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ ذلك الأَثَرَ مُحِيَ بالصُّلْحِ، وخُصُوصًا المُلُوكَ؛ فإنَّ لَذَّتَهُمُ الكُبْرَى أَلَّا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ، ولا يَنْكَسِرَ لهم غَرَضٌ، فإذا جَرَى شَيْءٌ مِنْ ذلك لَمْ يَنْجَبِرْ.

واعْتَبِرْ هذا بأبي مُسْلِمٍ الخُراسانيِّ، فإنَّهُ غَضَّ مِنْ قَدْرِ المَنْصُورِ قَبْلَ ولايتِهِ، فحصل ذلك في نَفْسِهِ فَقَتَلَهُ، وَمَنْ نظَرَ في التَّواريخِ، رَأَى جماعةً قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هذا، ولا يَنْبَغِي لِمَنْ أَسَاءَ إلى ذِي سُلْطانٍ أَنْ يَقَعَ في يَدِهِ، فإنَّهُ إذا رَامَ التَّخَلُّصَ لَمْ يَقْدِرْ؛ فيَبْقَى نَدَمُهُ على تَرْكِ احْتِرازِهِ، وحَسْرَتُهُ على مساكنةِ الضَّمانِ للسَّلامةِ - أَشَدَّ عليه مِنْ كُلِّ ما يلقى بِهِ مِنَ الهَوَانِ والأَذَى.

وَمِنْ هذا الجِنْسِ الأَصْدِقاءُ المُتماثِلُون، فإنَّكَ مَتَى آذيتَ شَخْصًا، وبلغ إلى قَلْبِهِ أَذَاكَ - فلا تَثِقْ بمَوَدَّتِهِ؛ فإنَّ أَذَاكَ نُصْبُ عَيْنِهِ، فإنْ لَمْ يَحْتَلْ عَلَيْكَ، لَمْ يَصْفُ لَكَ، ولا تُخالِطْ إلَّا مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بحب، فَهُوَ لَمْ يَرَ مِنْكَ شَيْئًا في نَفْسِهِ، وكذلك الوَلَدُ والزَّوْجَةُ والعامِلُونَ، ويَلْحَقُ بهذا أَنْ أَقُولَ: لا يَنْبَغِي أَنْ تُعادِيَ أَحدًا، ولا أَنْ تَقُولَ في حقِّهِ؛ فَرُبَّما صارَتْ لَهُ دَوْلَةٌ فاسْتَفَى، ورُبَّما احْتِيجَ إلَيْهِ فَلَمْ يُقْدَرْ عليه، فالعاقِلُ يُصَوِّرُ في نَفْسِهِ كُلَّ مُمْكِنٍ، ويَسْتُرُ ما في قَلْبِهِ مِنَ البُغْضِ والوُدِّ، ويُداري مَعَ الغَيْظِ والحِقْدِ، هذِهِ مَساوِرُ[2] العَقْلِ إنْ قُبِلَتْ»[3].

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٠٣).

(٢) المَسَاوِرُ: جَمْعُ مِسْوَرٍ - بزِنَةِ مِنْبَرٍ -، وهُوَ مُتَّكَأٌ مِنْ جِلْدٍ.

(٣) المرجع السابق (ص٢٢١ - ٢٢٢).

قال البهاء زهير -عفا الله عنه- :

تَـرَى كَـمْ قَـدْ بَـدَتْ مِـنْكُمْ ... أُمُـورٌ مـا عَـهِـدْنَـاهَـا
وَعَـرَّضْـتُـمْ بِـأَقْـوَالٍ ... وَمَـا نَـجْـهَـلُ مَـعْـنَـاهـا
نَـبَـشْـتُـمْ بَـيْـنَـنَـا أَشْـيَـا ... ءَ كُـنَّـا قَـدْ دَفَـنَّـاهَـا
وَطَـرَّقْـتُـمْ إِلى الْـغَـدْرِ ... طَـرِيْـقًـا مـا سَـلَـكْـنَـاهَـا
وَكَـمْ جَـاءَتْ لَـنَـا عَـنْـكُـمْ ... أَحَـادِيْـثٌ رَدَدْنَـاهَـا
وأَشْـيَـاءٌ رَأَيْـنَـاهَـا ... وَقُـلْـنَـا مـا رَأَيْـنَـاهَـا
فَـلاَ واللهِ مـا يَحْـ ... سُـنُ بَـيْنَ النَّـاسِ ذِكْـرَاهَـا
قَـرَأْنَـا سـورة الـسُّـلْـوَا ... نِ عَـنْـكُـمْ بَـلْ حَـفِـظْـنَـاهَـا
فَـرِجْـلٌ تَـطْـلُـبُ المَسْـعَـى ... إِلَـيْـكُـمْ قَـدْ مَـنَـعْـنَـاهَـا
وَعَـيْـنٌ تَـتَـمَـنَّـى أَنْ ... تَـرَاكُـمْ قَـدْ غَـضَـضْـنَـاهَـا
وَنَـفْـسٌ كُـلَّـمَا اشْـتَـاقَـتْ ... لِـلُـقْـيَـاكُـمْ زَجَـرْنـاهـا
وَكَـانَـتْ بَـيْـنَـنَـا طَـاقٌ ... فَـهَـا نَـحْـنُ سَـدَدْنَـاهـا
وفي الـنَّـفْـسِ بَـقـايـا مِـنْ ... أَحَـادِيْـثٍ خَـبَـأْنَـاهَـا
فَـلَـوْ أَرْضَـتْـكُـمْ الأَرْوَا ... حُ مِـنَّـا لَـبَـذَلْـنَـاهَـا

سِحْرٌ:

بَنِي عَمِّنَا، إِنَّ الـعـداوةَ شَـأْنُهَـا ... ضَغَـائِنُ تَبْقَى في نُـفُوسِ الأَقَـارِبِ

الكَلْبُ المُعَلَّمُ

إنَّ الكَلْبَ المُعَلَّمَ أدْرَى بفُنُونِ التَّعامُلِ،
وعَدْلِ السّيرةِ ما لا يَدْرِيهِ كثيرٌ مِنَ النّاسِ،
فإذا ما صَنَعَ أحَدُهُمْ صَنِيعَهُ،
لَظَهَرَ مِنْهُ الوَجْهُ الجميلُ،
وقَرُبَ لَهُ في القُلُوبِ مِنَ الفَضْلِ ما لا يُدْرَكُ.

ما يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَعلَّمَ مِنْ هذا الحَيوَانِ ما يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ، فكثيرٌ مِنَ العُقَلاءِ ـ كما يقولُ ابْنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ: «يتعلَّمُ مِنَ الحيواناتِ البهم أُمُورًا تَنْفَعُهُ في معاشِهِ، وأخلاقِهِ، وصناعتِهِ، وحَرْبِهِ، وحَزْمِهِ، وصَبْرِهِ»[1].

ويقولُ الإمامُ ابْنُ الجَوْزِيّ ـ رحمه الله ـ: «رَأَيْتُ كِلَابُ الصَّيْدِ إذا مرَّتْ بكلابِ المحلةِ نَبَحَتْها، وبالغتْ وأَسْرَعَتْ خَلْفَها، وكأنَّها تَرَاها مُكَرَّمةً مُجَلَّلةً، فَتَحْسُدُها على ذلك.

ورأيتُ كِلَابَ الصَّيْدِ حِينَئِذٍ لا تَلْتَفِتُ إليها، ولا تُعِيرُها الطَّرْفَ، ولا تَعُدُّ نُباحَها شَيْئًا، فرأيتُ أنَّ كِلَابِ الصَّيْدِ كأنها لَيْسَتْ مَنْ جِنْسِ تِلْكَ الكِلَابِ؛ لأنَّ تِلْكَ غَلِيظةُ البَدَنِ، كَثِيفةُ الأَعْضَاءِ، لا أمانةَ لها، وهذه لطيفةٌ دقيقةُ الخِلْقةِ، ومَعَهَا آدابٌ قَدْ ناسَبَتْ خِلْقَتَها اللَّطيفةَ، وإنَّها تَحْبِسُ الصَّيْدَ على مالِكها خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، أَوْ مُراعاةَ شُكْرِ نِعْمَتِهِ عليها، فرأيتُ أنَّ الأَدَبَ وحُسْنَ العِشْرةِ تتبعُ لطافة البَدَنِ، وصَفَاءَ الرُّوحِ، وهكذا المُؤْمِنُ العاقلُ لا يَلْتَفِتُ إلى حاسِدِهِ، ولا يَعُدُّهُ شَيْئًا، إذْ هُوَ في وَادٍ، وذاك في وَادٍ، ذاك يَحْسُدُهُ على الدُّنْيا، وهذا هِمَّتُهُ الآخرةُ؛ فيا بُعْدَ ما بَيْنَ الوادِيَيْنِ!»[2].

---

(١) «شفاء العليل» (ص١٦٣).

(٢) «صَيْدُ الخاطر» (ص٣٥٦).

الْـكَـلْـبُ أكـرَمَ عـشـيرةً وَهُـوَ الـنـهـايَـةُ في الخَسَاسَة
مـن مـعشـر طـلبوا الرِّئَـاسَـة قَـلَ تَحْـقِـيـقِ الـرِّئـاسَـة

خاطِرَة:

تعلَّمْ مِنَ الحَيَوانِ البَهيمِ ما يَنْفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ؛ فإنَّهُ لَمْ يَحْسُدْكَ إلَّا على العَقْلِ.

obeikandl.com

اسقِ أرضَكَ

إنَّ الأقاربَ أحوَجُ النَّاسِ
إلى حُسنِ العِشرةِ، وسَعَةِ الخُلُقِ،
والصَّفحِ عَنِ العَثَراتِ، والغَضِّ
عَنِ المَساوِئِ، مِنْ غَيْرِ إثْمٍ أوْ مَعْصِيَةٍ.

القَريبُ مَنْ قَارَبَكَ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ أو الصِّهْرِ، رعايةُ أَحْوالِهِمْ قَرابةٌ، صِلَتُهُمْ دِيانةٌ، قَطِيعَتُهُمْ كَبيرةٌ، التَّحريشُ بَيْنَهُمْ جَريمةٌ، ظُلْمُهُمْ جُرْحٌ لا يَنْدَمِلُ.

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضةً[١] على المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ[٢] المُهَنَّدِ[٣]

ونَحْنُ نُحَذِّرُ مِنْ عَداوةِ الأقارب؛ فإنَّها تَبْدَأُ هَيِّنَةً، ثُمَّ تَصيرُ مُسْتَحْكمةً، وأنا أُخبرُكَ: أَنَّهُ كان حَوْلَنا أخٌ عاقلٌ، قال لِعم لَهُ كلمةً عابرةً، ما كان أَحَدٌ يتصوَّرُ أنْ تَبْلُغَ مَبْلَغَها، فَأَخَذَهُ ذلك العَمُ مِنْ بَيْتِهِ لَيْلًا، على أساس أنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ، وفي الطَّريقِ قَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ، ثُمَّ تَرَكَهُ في الطَّريقِ، لتَنْهَشَهُ الكلابُ[٤]، والنَّاسُ لا يتصوَّرون هذا مِنْهُ، مَعَ ما بَيْنَهُما مِنْ وُدٍّ يَعْجَزُ القَلَمُ عَنِ التَّعبيرِ عَنْهُ!.

أَتَدْري ماذا قال؟، إنَّهُ قال لَهُ: «أَذْهَبْ إلى القَرْيةِ مَعَ أَهْلِكَ بملابسِكُمْ هذه!» فاعْتَبَرها إهانةً أيَّما إهانة، غطَّتْ على حُرْمَةِ الأُبُوَّةِ، ورعايةِ حَقِّ الصُّحْبةِ، والوُدِّ القَديم!.

لِمِثْلِ هذا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إنْ كان في القَلْبِ إسلامٌ وإيمانُ!

---

(١) المَضَاضة ـ بالفتح ـ: وَجَعُ المُصيبةِ.

(٢) الحُسَام: السَّيف القاطع.

(٣) المُهَنَّد: السَّيف المنسوبُ إلى الهِنْد صناعةً وجَوْدةً.

(٤) حَصَلَ أَن اجْتَزْتُ مَعَ أَهْلي لَيْلًا مكانَ الحادثِ بَعْدَ أيَّامٍ مِنْ وُقُوعِه، فَطَلَبَ أَهْلي أنْ نَسْلُكَ غَيْرَ تِلْكَ الطَّريق، فَقُلْتُ: توكَّلوا على الله، وطيلةَ الطَّريق كانتْ زَوْجتي تتلفَّتُ وتَتَفَزَّعُ، فقلتُ لها: الشَّيْءُ الَّذي يَجبُ أَنْ نَخَافَهُ هُوَ الخَوْفُ، وما زِلْتُ أعِظُها في الخَوْفِ، فما سَكَنَتْ، وقَدْ تَرَكَتْ تِلْكَ الحادثةُ في نَفْسي أَثَرًا بالغًا.

قال العلَّامةُ ابنُ الجَوْزيّ – رحمه الله –: «عَدَاوَةُ الأَقَارِبِ صَعْبةٌ، ورُبَّما دامَتْ كحَرْبِ بَكْرٍ وتَغْلِبَ ابْنَيْ وائلٍ، وعَبْسٍ وذُبْيَانَ ابْنَيْ بغيضٍ، والأَوْسِ والخَزْرَجِ ابْنَيْ قَيْلَةَ. قال الجاحِظُ: رَكَدَتْ[1] هذِهِ الحَرْبُ أَرْبَعينَ عامًا.

قُلْتُ: والسَّبَبُ في هذا أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنَ الأَقَارِبِ يَكْرَهُ أَنْ يَفُوقَهُ قَرِيبُهُ، فَيَقَعُ التَّحاسُدُ؛ فينبغي لِمَنْ فَضَلَ على أَقاربِهِ أنْ يتواضَعَ لَهُمْ، ويَرْفَعَهُمْ جَهْدَهُ، ويَرْفُقَ بِهِمْ؛ لعلَّهُ يَسْلَمُ»[2].

قال البهاء زهير – رحمه الله –:

أَأَحْبَابَنَا بالله كَيْفَ تغيَّرَتْ ... خَلَائِقَ غُرٌّ فِيكُمُ وغَرَائِزُ

لَقَدْ ساءني الْعَتْبُ الَّذي جاءَ مِنْكُمُ ... وإِنِّي عَنْهُ لو عَلِمْتُمْ لَعَاجِزُ

لَكُمْ عُذْرُكُمْ أَنْتُمْ سمعتُم فقلْتُمْ ... وَمُحْتَمَلٌ ما قَدْ سَمِعْتُمْ وجَائِزُ

هَبُوا أَنَّ لِي ذَنْبًا كَمَا قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَهَلْ ضَاقَ عَنْهُ حِلْمُكُمْ والتَّجاوُز

نَعَمْ لِيَ ذَنْبٌ جئْتُكمْ مِنْهُ تَائبًا ... كَمَا تَابَ من فِعْلِ الخَطيئة مَاعِزُ

عَلى أنني لم أَرْضَ يَوْمًا خِيَانَةً ... وهَيْهَاتِ لي والله عن ذاك حَاجِزُ

وَبَيْنَ فُؤادي والسُّلُوِّ مَهَالِكٌ ... وَبَيْنَ جُفُوني والرُّقَادِ مَفَاوِز

وإِنْ قُلْتُ واشْوَاقَاهُ للبان والحِمَى ... فإِنِّي عَنْكُمْ بالكناية رَامِز

دَعُوني والواشي فإِنِّي حَاضِرٌ ... وصوتِي مرفوعٌ وَوَجْهِيَ بَارِزُ

سيذكُرُ ما يجري لَنَا مِنْ مواقفٍ ... مشايخُ تبقى بعدنا وعَجَائزُ

بربِّك لا تَسْمعْ مَقَالَةَ حاسدٍ ... يُجَاهِرُ فيما بَيْننا ويُبَارِزُ

فما شَاقَ طَرْفِي غيرُ وجْهِكَ شائقٌ ... ولا حَازَ قَلْبِي غَيْرُ حُبِّكَ حَائِز

---

(١) رَكَدَتْ: طالتْ ودامتْ، وبابُهُ دَخَلَ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٣٥٦).

سأكْتُمُ هـذا العَتْبَ خَيْفَةَ شَامِتٍ ... وأُوهِـمُ أنِّي بالرِّضا مِنْـكَ فائِزُ
فلي فِيْكَ حُسَّادٌ وَبَيْني وبَيْنَهُمْ ... وَقَـائِـعُ لَيْسَتْ تَنْقضي وَهَـزَاهِـز
وإِني لَهُـمْ في حَـرْبِهِـمْ لَمُـخَـادِعٌ ... أُسالِمُهُمْ طـورًا وَطَـوْرًا أُنَـاجِـزُ[1]

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-: أنَّ رجلًا قال: يا رَسُولَ الله، إنَّ لي قرابةً أَصِلُهُمْ ويَقْطَعُوني وأُحْسِنُ إليهمْ ويُسيئُونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عَنْهُمْ ويَجْهَلُونَ[2] عليَّ، فقال: «لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ، فكأَنَّما تُسِفُّهُمْ[3] المَلَّ[4]، ولا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظهِيرٌ عليهِمْ[5]، ما دُمْتَ على ذلك». «رواه مسلم» (٢٥٥٨).

(١) «ديوان البهاء زهير» ص ١٦٩-١٧٠.
(٢) الجهل هُنا: القبيح من القَوْلِ.
(٣) تُسِفُّهُم: تُطْعمهم.
(٤) المَلّ ـ بالفتح ـ: الرَّماد الحارُّ، شبَّه ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ الأَلَمِ بما يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمادِ الحارِّ مِنَ الأَلَمِ.
(٥) ظهير عليهم أَيْ: مُعِينٌ ودافعٌ لأذاهم.

obeikandl.com

أمارة النقص

إنَّ الذي يُدَنْدِنُ: جَدِّي فُلانٌ، وخالي عَلْانٌ،
وأنا ممَّنْ يُقَدِّمُهُ السُّلْطانُ،
وقبيلَتُنا كَبيرةٌ، بالمجدِ والكَرَمِ شهيرةٌ
-جاعلاً ذلك هِجِّيرَهُ- ما زاد على أنْ جَعَلَ نَفْسَهُ
مَسْخَرةً، وإنِ اعْتَقَدَ ذلك مَفْخَرةً.

النَّاسُ يَكْرَهُونَ مادحَ نَفْسِهِ، فكَيْفَ بمَنْ جَعَلَ ذلك مِنْ أَوْرَادِهِ؟!، بَلْ ذلك دَلِيلُ النَّقْصِ على الحَقِيقةِ؛ لأنَّ النَّاقصَ في أَصْلِهِ وشَخْصِهِ يُكْمِلُ نَقْصَهُ بالمَدْحِ، وهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا.

إنَّما الكاملُ ـ حقًّا ـ مَنْ تَرَكَ لِسَانَ أَفْعالِهِ تُتَرْجِمُ عَنْ مقالِهِ، كما قِيلَ:

وما حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ المَرْءُ نَفْسَهُ ... ولكنَّ أَخْلاقًا تُذَمُّ وتُمْدَحُ

والعَرَبُ تَقُولُ في أَمْثالِها: «إذا غاب عَنْكَ أَصْلُهُ، كان دَلِيلَ أَصْلِهِ فِعْلُهُ».

وتَقُولُ: «مَنْ طاب أَصْلُهُ، زَكَى فِعْلُهُ».

وتقولُ: «أَصْلٌ راسخٌ، وفِعْلٌ شامخٌ».

ويقولُ الشَّاعِرُ:

لا تَنْظُرَنَّ إلى امْرِىءٍ ما أَصْلُهُ؟ ... وانْظُرْ إلى أَفْعالِهِ ثُمَّ احْكُمِ[٢]

ولنا أَنْ نَنْظُرَ بماذا كان العَرَبِيُّ يَسُودُ قَوْمَهُ؟

فَهَلْ كان يَعْتَمِدُ على مآثِرِ آبائِهِ، كما هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ العَجَمِ، وانتقلتْ تِلْكَ النَّعَرةُ[٣] عَنْهُمْ إلى بَعْضِ جُهَّالِ العَرَبِ؟!.

إنْ كُنْتَ تَسْمُو بآباءٍ ذَوِي نَسَبٍ ... فَقَدْ صَدَقْتَ، ولكنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا!

---

(١) يُقالُ: هذا هِجِّيرُهُ ـ بكَسْرِ الهاءِ والجيمِ مُشَدَّدة ـ أَيْ: دَأْبُهُ وشَأْنُهُ.

(٢) «محاضرات الأدباء» (١/ ٦٩٩).

(٣) النَّعرة ـ بزِنَةِ الهُمَزَةِ ـ: النَّخْوة والأَنَفةِ والكِبْر.

وقال آخَرُ:

عَجِبْتُ لِـذِي جَـهْـلٍ يَـظُـنُّ جُـدُودَهُ تُرْقِيـهِ، والمَرفُـوعُ بالفِعْـلِ فاعِلُـهْ!

وَمِنْ دُرَرِ العلَّامةِ الهلاليِّ الحسنيِ – رحمه الله – قولُهُ: بماذا كان يَسُودُ السَّيِّدُ عِنْدَ العَرَبِ؟، بانتسابٍ إلى بَيْتِ مَلِكٍ، كما هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ العَجَمِ!

الجوابُ نَجِدُهُ في شِعْرِ العَرَبِ، وهُوَ دِيوانُهُمْ.

قال الشَّاعِرُ:

وإنِّي وإنْ كُـنـتُ ابْـنَ سيِّدِ عامِرٍ وفـارِسِها الـمَشْهُورِ في كُلِّ مَوْكِبِ

فـما سَـوَّدَتْـنـي عـامـرٌ عَـنْ وراثـةٍ أَبَـى اللهُ أَنْ أَسْـمُـوَ بـأُمٍّ وَلَا أَبِ

ولـكـنِّـي أَحْـمِـي حِـمَـاهـا، وأتَّـقـي أَذَاها، وأَرْمي مَنْ رماها بمَـنْـكِبِي

وقال غَيْرُهُ:

بِبَـذْلٍ وحِلْمٍ سـادَ في قَـوْمِـهِ الفَتَى وكَـوْنـك إيـاه عـلـيـك يـسـيرُ

وقال آخَرُ:

هُـمـا سـيِّـدانـا يَـزْعُـمـانِ، وإنَّـمـا يَسُودَانِنَا إنْ يَـسَّرَتْ غَنَمـاهُما[1]

فالسَّيِّدُ ـ عِنْدَ العَرَبِ ـ هُوَ الَّذي يَحْمي الحِمَى بشَجَاعتِهِ، ويَبْذُلُ القِرَى[2] بكَرَمِهِ، ويَحْلُمُ على الجاهِلِ، ويَنْصُرُ المَظْلُومَ، ويُكْرِمُ اليتيمَ، ويُعينُ الضَّعيفَ، فَمَنِ اتَّصف بهذِهِ الخِصَالِ وما وَالَاها، وتَفقَّه في الدِّينِ، وتمسَّكَ بِهِ ـ فَهُوَ السَّيِّدُ المُفَضَّلُ على مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ في ذلك». أهـ

ثُمَّ أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الدِّينِ والانتسابِ إليه على عِزَّتِهِ، وغُرْبَةِ أَهْلِهِ؟!، فإنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يقُولُ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ على عَهْدِ مُوسَى، فقال أَحَدُهما: أنا فُلانُ بْنُ فُلانٍ، حتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ -لا أُمَّ لَكَ[3]- ؟!.

---

(١) يَسَّرَ الغَنَمُ: كَثُرَ لَبَنُها أَوْ نَسْلُها.

(٢) القِرَى ـ بالكَسْرِ والقَصْرِ ـ : طعام الضِّيافة.

(٣) لا أُمَّ لك أَيْ: أنت لَقِيطٌ لا تُعْرَفُ لك أُمٌّ.

قال: أنا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنِ الإسلام.

فَأَوْحَى اللهُ إلى مُوسَى: أَنْ قُلْ لهذَيْنِ المُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ ـ أَيُّها المُنْتَسِبُ إلى تِسْعَةٍ في النَّارِ ـ فأَنْتَ عاشِرُهُمْ في النَّارِ، وأَمَّا أَنْتَ ـ أَيُّها المُنْتسبُ إلى اثْنَيْنِ في الجَنَّةِ ـ فأَنْتَ ثالِثُهما في الجنَّةِ»[١].

ويَقُولُ ـ ﷺ ـ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوامٌ يَفْتَخِرُونَ بآبائِهِمُ الَّذين ماتُوا، إنَّما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على اللهِ مِنَ الجُعَلِ[٢] الَّذي يُدَهْدِهُ[٣] الخِرَاءَ بأَنْفِه، إنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[٤] الجاهِلِيَّةِ، وفَخْرَها بالآباءِ، إنَّما هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وفاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»[٥].

قال ابنُ الورديِّ:

لا تَـقُـلْ أَصْـلي وفَـصْـلي أَبَـدًا ... إنَّـما أَصْـلُ الفَتَى مـا قَـدْ حَصَلْ

قَـدْ يَـسُـودُ المَـرْءُ مِـنْ دُونِ أَبٍ ... وبحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْفَى الدَّغَل

إنَّـما الـوَرْدُ مِـنَ الـشَّـوْكِ، ومـا ... يَـنْبُتُ الـنَّـرْجِسُ إلَّا مِـنْ بَصَلْ

قِـيـمَـةُ الإنْـسـانِ مـا يُحْسِـنُـهُ ... أَكْـثَـرَ الإنْـسـانُ فـيْـهُ أَمْ أَقَـل

وقال آخَرُ:

لَـيْـسَ الـفَـتَى مَـنْ قـال: كـان أبي ... إنَّـما الـفَـتَى مَـنْ قـال: هـأَنَـا

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ١٢٨) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ـ رضي الله عنه ـ، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٢٧٠).

(٢) الجُعَل ـ بزنَةِ صُرَدٍ ـ: دُوَيْبَّةٌ سوداءُ تأكل العَذِرة، يُقالُ لها الخُنْفَسَاءُ، كانت العَرَبُ إذا ذمَّت شخصًا شبَّهتْهُ بها، والجَمْعُ جِعْلانٌ ـ بالكَسْرِ ـ.

(٣) يُدَهْدِهُ: يُدَحْرِجُ.

(٤) العُبِّيَّة ـ بضمِّ العين وكَسْرِها، وتشديدِ الباءِ المكسورةِ والياءِ المفتوحةَ: الكِبْرُ والفَخْرُ والنَّخْوة.

(٥) (حسن) أخرجه التِّرْمذيُّ (٣٩٥٥) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «غاية المرام» (٣١٢).

وقال آخَرُ:

فلا تَحْسَبِ الأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَظَى ... ولَوْ كُنْتَ مِنْ قَيْسٍ وعَبْدِ مَدَانِ
أَبُو لَهَبٍ صَبٍ في النَّارِ وَهْوَ ابْنُ هاشِمٍ ... وسَلْمَانُ في الفِرْدَوْسِ مِنْ خُرْسَانِ

قُلتُ: وَهُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الفَخْرِ يَسْتَخْدِمُهُ الأَذْكِيَاءُ، ولا يَفْهَمُهُ إِلَّا أَمْثَالُهُمْ، وَهُوَ: أَنْ يَذُمَّ غَيْرَهُ؛ لترتَفِعَ نَفْسُهُ، وقُلْ مِثْلَ ذلك في القبائِلِ والعَشَائِرِ والبُطُونِ، وَهُوَ خُلُقٌ فاشٍ في النَّاسِ غالبٌ عليهم، قَدْ شَاهَدْنا وبَلَوْنَا، ولا يتَّصفُ به إِلَّا أَهْلُ السَّلاطَةِ والوَقَاحةِ مِنَ العيَّابينَ.

ومِثْلُ هؤلاءِ تَلْفِظُهُمُ القُلُوبُ، كما يَلْفِظُ البَحْرُ الجِيَفَ !.

ولله دَرُّ القائِلِ:

وما عَبَّرَ الإنسانُ عَنْ فَضْلِ نَفْسِهِ ... بِمِثْلِ اعْتِقَادِ الفَضْلِ في كُلِّ فاضِلِ

جَوَاهِرُ:

قال الزَّمَخْشَرِيُّ -غفر الله لَهُ-:

«الأَصِيلُ مَنْ رَسَخَ في ثَرَى الطَّاعةِ عَرَقُهُ، والمُقَدَّمُ مَنْ أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ سَبْقُهُ[1]» «أطواق الذَّهب» (ص١٠٩).

(١) قولُهُمْ: أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ: أَصْلُهُ أَنَّهم كانوا يَنْصِبُونَ في حَلْبَةِ السِّباقِ قَصَبَةً، فَمَنْ سَبَقَ اقْتَلَعها وأخذها؛ ليُعْلَمَ أَنَّهُ السَّابقُ مِنْ غيرِ نزاعٍ، ثُمَّ كَثُرَ حتَّى أُطْلِقَ على المُتبرِّزِ والمُشْتَمِرِ.

بابُ الرَّاحَةِ

الرَّاحةُ بَتَمامِها في اطِّراحِ المُبالاةِ بكلامِ النَّاسِ؛ لأنَّ في الالتفاتِ إعانةً للخَصْمِ، ومَنْ مِنَّا يَرْضَى إعانةَ خَصْمِهِ على نَفْسِهِ؟!.

وَمِن دُرَرِ العَلَّامةِ ابنِ حَزمٍ – رحمه الله – **قولُهُ:** «بابٌ عظيمٌ مِنْ أَبْوابِ العَقْلِ والرَّاحةِ، وَهُوَ: اطِّراحُ المُبالاةِ بكلامِ النَّاسِ، واستعمالُ اللَّامُبَالاةِ بكلامِ الخالقِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، بَلْ هذا بابُ العَقْلِ كُلِّه، والرَّاحةِ كُلِّها»[1].

وقال: «مَنْ حقَّق النَّظَرَ، وراضَ نَفْسَهُ على السُّكُونِ إلى الحقائقِ ـ وإنْ آلَمَتْها في أَوَّلِ صَدْمةٍ ـ كان اغْتِباطُهُ بذَمِّ النَّاسِ إيَّاهُ أَشَدَّ وأكثرَ مِن اغتباطِهِ بمَدْحِهِمْ إيَّاهُ؛ لأنَّ مَدْحَهُمْ إيَّاهُ إنْ كان بحقٍّ، وبَلَغَهُ مَدْحُهُمْ لَهُ ـ أَسْرَى ذلك فِيهِ العُجْبَ، فأفْسَدَ بذلك فضائلَهُ، وإنْ كان بباطلٍ، فَبَلَغَهُ فَسَرَّهُ ـ فَقَدْ صار مَسْرُورًا بالكَذِبِ، وهذا نَقْصٌ شديدٌ.

وأَمَّا ذَمُّ النَّاسِ إيَّاهُ فإنْ كان بحقٍّ فبلغه، فَرُبَّما كان ذلك سَبَبًا إلى تَجَنُّبِهِ ما يُعابُ عَلَيْهِ، وهذا حَظٌّ عظيمٌ؛ لا يَزْهَدُ فِيهِ إلَّا ناقصٌ، وإنْ كانَ بباطلٍ، فَبَلَغَهُ فَصَبَرَ، اكْتَسَبَ فَضْلًا زائدًا بالحِلْمِ والصَّبْرِ، وكان ـ مَعَ ذلك ـ غانمًا؛ لأنَّهُ يَأْخُذُ حسَنَاتِ مَنْ ذمَّهُ بالباطِلِ، فيَحْظَى بها في دارِ الجزاءِ، أَحْوَجَ ما يَكُونُ إلى النَّجاةِ بأَعْمالٍ لَمْ يَتْعَبْ فيها، ولا تَكَلَّفها، وهذا حظٌّ عظيمٌ؛ لا يَزْهَدُ فيه إلَّا مَجْنُونٌ.

---

(١) «الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).

وأمَّا إنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَدْحُ النَّاسِ إيَّاهُ، فكلامُهُمْ وسُكُوتُهُمْ سَواءٌ، ولَيْسَ كذلك ذَمُّهُمْ إيَّاهُ؛ لأنَّهُ غانمٌ للأَجْرِ على كُلِّ حالٍ، بَلَغَهُ ذَمُّهُمْ أَوْ لَمْ يَبْلُغْهُ»[1].

فائدةٌ ذَهَبِيَّةٌ:

وأَمَّا الخطَّابيُّ - رحمه الله - فَيَسُوقُ لَكَ فائدةً ذَهَبِيَّةً، فلا تَعْزُبْ[2] عَنْكَ؛ فرُبَّما لا تَجِدُها عِنْدَ غَيْرِهِ.

قال: «وسأُفِيدكُ فائدةً - يا أخي - يَجِلُّ نَفْعُها، وتَعْظُمُ عائِدَتُها، وما أَقُولُها إلَّا عَنْ وُدٍّ لَكَ، وشَفَقةٍ عليك؛ فإنَّ البَلْوَى في مُعاشرةِ أَهْلِ زمانِكَ عَظِيمَةٌ، فاسْتَعِنْ بِهَا على ما يَلْقَاكَ مِنْ أَذَاهُمْ، فإنَّكَ لا تَخْلُو مِنْ قَلِيلِهِ، وإنْ سَلِمْتَ مِنْ كَثِيرِهِ؛ وذلك أنَّكَ قَدْ تَرَى الواحِدَ بَعْدَ الواحِدِ مِنْهُمْ يتكالبُ على النَّاسِ، ويتسفَّهُ على أَعْراضِهِمْ، ويَنْبَحُ فيها نُباح الكلب، فَيُهِمُّكَ مِنْ شَأنِهِ مَا يَهُمُّك، ويَسُوءُكَ مِنْهُ ما يَسُوءُك، إلَّا أنْ يكونَ رَجُلًا فاضلًا يُرْجَى خَيْرُهُ، ويُؤْمَنُ شَرُّهُ؛ فَيَطُولُ في أَمْرِهِ فِكْرُكَ، ويَدُومُ بِهِ شُغْلُ قَلْبِكَ؛ فأَزِحْ هذا العارِضَ عَنْ نَفْسِكَ بأنْ تَعُدَّهُ - على الحقيقةِ - كلبًا خِلْقَةً!، وَزِدْ بِهِ في عَدَدِ الكِلَابِ واحِدًا، ولَعَلَّك قَدْ مَرَرْتَ - مَرَّةً مِنَ المِرَارِ - بكَلْبٍ مِنَ الكِلابِ يَنْبَحُ ويَعْوِي، وَرُبَّما كان - أيضًا - قَدْ يُسَاوِرُ[3] ويَعْقِرُ[4]، فلم تُحَدِّثْ نَفْسَكَ في أَمْرِهِ بأنْ يَعُودَ إنسانًا يَنْطِقُ ويَسيحُ، فلا تتأسَّفْ لَهُ ألَّا يكُونَ دابَّةً تُرْكَبُ، أَوْ شاةً تُحْلَبُ؛ فاجْعَلْ هذا المُتَكَلِّبُ كَلْبًا مِثْلَهُ، واسْتَرِحْ مِنْ شُغْلِهِ، وارْبَحْ مؤونَةَ الفِكْرِ فِيهِ، وكذلك فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ مَنْزِلَةُ مَنْ

(١) المرجع السَّابق (ص٨٠ - ٨١).
(٢) فلا تعزب أَيْ: فلا تَغِبْ، وبابُهُ دَخَلَ وجَلَسَ.
(٣) يُسَاور: يُواثب ويَثُورُ.
(٤) يعقر: يَجْرَحُ، وبابُهُ ضَرَبَ.

جَهلَ حَقَّكَ، وكَفَرَ مَعْرُوفَكَ، فاحْسِبْهُ حِمَارًا، أَوْزِدْ بِهِ فِي عَدَدِ العانةِ[١] واحِدًا، فَبِمِثْلِ هذا تَتَخَلَّصُ مِنْ آفَةِ هذا البابِ وغائلَتِه، واللهُ المُسْتَعانُ»[٢].

قُلتُ: قَلَّ أَنْ يَخْلُوَ زَمَانٌ مِنْ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ يُنَاصِبُونَ غَيْرَهُمُ العدَاءَ، وعَدَاوةُ اللِّسانِ أَنْكَى مِنْ عداوةِ السِّنانِ[٣]، وَمَنْ مِنَّا قَدْ سَلِمَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ؟!.

ولله دَرُّ القائلِ:

وَلَيْسَ يَخْلُو الزَّمَانُ مِنْ شُغَلٍ ... فِيهِ، ولا مِنْ خِيَانَةٍ وخَنَا[٤]

ما سَلِمَ اللهُ مِنْ بَرِيَّتِهِ ... ولا نَبِيُّ الهُدَى، فَكَيْفَ أَنَا؟!

حِلْيَة:

قال الإمامُ ابنُ حَزمٍ — رحمه الله —:

«مَنْ قدَّر أَنَّهُ يَسْلَمُ مِنْ طَعْنِ النَّاسِ وعَيْبِهِمْ فَهُوَ مَجْنُونٌ».

«الأخلاق والسِّير» (ص٨٠).

(١) **العانة:** قَطِيعُ حُمُرِ الوَحْشِ، والجَمْعُ عُونٌ ـ بالضَّمِّ ـ.

(٢) «العزلة» لأبي سُلَيمانَ الخَطَّابيِّ (ص٧٦).

(٣) **السِّنان** ـ بزنَة الكتَاب ـ: نَصْلُ الرُمْحِ، والجَمْعُ أَسِنَّةٌ.

(٤) **الخَنَا:** الفُحْشُ فِي المَنْطِقِ.

obeikandl.com

أدَبٌ مَفْقُودٌ

إنْ كِتْمانَ السِّرِّ حَتَّى عَنْ أَخَصِّ النَّاسِ بك فَضِيلةٌ تامَّةٌ، تَكْسِبُكَ المَحبةَ، وَتَكْسُوكَ المَهابةَ، وتَرْفَعُ عَنْكَ المَلامةَ.

كِتْمانُ السِّرِّ وما أَدْرَاكَ ما كِتْمانُ السِّرِّ؟، أَدَبٌ عَظِيمٌ، وخُلُقٌ رَفيعٌ، لكنَّهُ غَرِيبٌ حتَّى عَنْ بَعْضِ أَهْلِه.

تستودعَ السِّرَّ غَيْرَكَ، ثُمَّ لا تَلْبَثُ إلَّا يسيرًا، حتَّى تَجِدَهُ عَلَمًا في رَأْسِهِ نارٌ، تستشيرُ أخاك في أَمْرٍ: كزواجٍ أَوْ نَحْوِه، ثُمَّ تَلْتَفِتُ كالمُسْتَوْدِعِ لحديثِكَ[1]، فما هي إلَّا أيَّامٌ وقَدْ ذَهَبَ مُسْتشارُك بحاجتِكَ، ورُبَّما خَطَبَ لك أَوْ لغَيْرِكَ.

وأَذْكُرُ أنِّي عَزَمْتُ على نصيحةِ ذاتِ شَأْنٍ لمكانِ المخالفةِ، وبَعْدَ استشارةٍ تقدَّمْتُ إليه بالنَّصيحةِ، فقال: «شَكَرَ اللهُ لَكَ الفَضِيحةَ» !.

وكُلُّ هذا يَحْصُلُ بَيْنَ الصَّالحين قَبْلَ غَيْرِهِمْ.

وأيُّ رَجُلٍ يَشُمُّ رائحةَ العِلْمِ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْلُ هذا الأَدَبِ.

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إلَّا أنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ! مَنْ تَدَثَّرَ بِهِ لكَفَى، فكَيْفَ وفيهِ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ، وعُلُوِّ القَدْرِ، وسَلَامةِ العِرْضِ ما فِيهِ؟!.

---

(١) أخرج أحمدُ في «المسند» (٣/ ٣٧٩) وأبو داوُدَ (٤٨٦٨)، والتِّرْمذيُّ (١٩٥٩) بسندٍ حَسَنٍ حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصَّحيحة» (١٠٩٠) مِنْ حديثِ جابرٍ -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «إذا حدَّثَ الرَّجُلُ بالحديثِ-ثُمَّ الْتَفَتَ- فَهُوَ أَمَانَةٌ».

(٢) المُخْدَع -بضمِّ الميمِ وكَسْرِها-: الخِزانة.

عـلَّ لـلـسِّرِّ حـقٌّ لا أُضَـيِّـعُـه ... أَسِيرُ صَدْري، وإنْ أَفْشَاهُ مُـوْدِعُهُ
خـلَّ لَـهُ مُخْـدَعًـا[٢] قَلْبي فغيَّبه ... حَتَّى نَسِيتُ بـأنَّ القَلْبَ مُخْـدَعُـهُ
بَلْ أَقْذِفُ السِّرَّ في جَوْفِ الضَّميرِ، فما ... تَـدْري خَواطِرُ فِكْري أَيْـنَ مَوْضِعُهُ

فيا أخي، إذا ضاق صَدْرُكَ عَنْ حَمْلِ سِرِّكَ، فَصَدْرُ مُسْتَوْدَعِهِ أَضْيَقُ، فإن أَفْشَاهُ أُتعاتِبُهُ؟!، كَيْفَ وقَدْ ضِقْتَ بِحَبْسِهِ ذَرْعًا؟!.

قال عَمْرُو بنُ العاصِ – رضي الله عنه –: «ما وَضَعْتُ سِرِّي عِنْدَ أَحَدٍ، فَلُمْتُهُ على أَنْ يُفْشِيَهُ، كَيْفَ أَلُومُهُ وقَدْ ضِقْتُ بِهِ ذَرْعًا؟!»[١].

إذا المَـرْءُ أَفْـشَـى سِرَّهُ بلِسَانِهِ ... ولام عَـلَـيْـه غَيْـرَهُ ـ فَـهُوَ أَحْـمَقُ
إذا ضاق صَـدْرُ المَـرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِه ... فَصَدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السِّـرَّ أَضْيَقُ[٢]

فالحازِمُ مَنِ انْفَرَدَ بسِرِّه، وَمَنْ نوابغ الحِكَم: «لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّكَ»[٣]، والمُتَشوِّفُ المُتطلِّعُ إلى ما عِنْدَكَ كالذُّباب، لا يحتفظُ بما أَخَذَهُ مِنْكَ بُرْهَةً.

والمَرْأَةُ ضَعيفةٌ، فلا تُحَمِّلْها ما لا تُطيقُ؛ فإنَّهُمْ قالُوا: «السِّرُّ في صَدْرِ المَرْأَةِ كالسُّمِّ، إذا لَمْ يَخْرُجْ قَتَلَها!».

وقالُوا: «اسْتَوْدِعِ المَرْأَةَ الخَرْسَاءَ سِرًّا، تَنْطِقْ به».

وأَجْمَعُوا على أَنَّ السِّرَّ الوَحيدَ الَّذي تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْتَفِظَ بِهِ هُوَ عُمْرُهَا!

جُمَانٌ:

قال ابنُ المُعْتَزِّ – رحمه الله –:

«انْفَرِدْ بسِرِّكَ، ولا تُودِعْهُ حازمًا فَيَزِلَّ، ولا جاهلًا فَيخُونَ»

«التَّمثيل والمحاضرة» (ص٢٤٧).

(١) «روضة العقلاء» (ص١٨٨).
(٢) «ديوان الشَّافعيِّ» (ص٩٢) تحقيق البقاعيِّ.
(٣) «التمثيل والمحاضرة» (ص٢٤٧).

غُرْبَـة

إنَّ صِيَانَةَ اللِّسَانِ عَنْ أَعْرَاضِ
المُسلمينَ حَسَنٌ جميلٌ، وأَجْمَلُ
مِنْ ذلك صِيانةُ السَّمْعِ؛ لِقلَّةِ
مَنْ يتفَطَّنُ لَهُ، وغُرْبَةِ أَهْلِهِ.

مِنْ حقِّ إخْوانِكَ عَلَيْكَ عَدَمُ السَّماحِ لأَحَدٍ أَنْ يَذْكُرَهُمْ في حَضْرَتِكَ بسُوءٍ، بَلْ مِنْ حقِّهِمْ أَنْ تتولَّى الدِّفاعَ عَنْهُمْ بالغَيْبِ، كما تُدافعُ عَنْ نَفْسِكَ في المَغيبِ والمَشْهَدِ، فإنْ فعلتَ ذلك عَنْ قَصْدٍ حسنٍ، كُنْتَ أَهْلًا لأَنْ يَرُدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِكَ حَرَّ السَّعيرِ، وجُزِيتَ في الدُّنيا بأَنْ يَنْصُرَكَ اللهُ في مَوْطِنٍ أَنْتَ أَحْوَجُ فيهِ إلى النُّصْرةِ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

فعن أبي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أنَّهُ قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامةِ»[1].

وعَنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ وأبي طَلْحَةَ - رضي الله عنهما - قالا: قال رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «ما مِنِ امْرِىءٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، ويُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ - إلَّا خَذَلَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ - يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ.

وما مِنِ امْرِىءٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ - إلَّا نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[2].

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٦/ ٤٥٠)، والتِّرْمذِيُّ (١٩٣١)، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦٢٦٢).

(٢) (حسن) أخرجه أحمدُ (٤/ ٣٠)، وأبو داوُدَ (٤٨٨٤)، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٦٩٠).

وَمَنْ عُرِفَ بكراهةِ إيحاشِ صَدْرِهِ على إخوانِهِ، وذِكْرِهِمْ بما يَكْرَهُونَ في حَضْرتِهِ ـ عَذَرَهُ النَّاسُ مِنْ أنْفُسِهِمْ، وأجَلُّوهُ فَوْقَ إجلالِهِمْ لذِي سُلْطَانٍ مِنْهُمْ.

ومن روائع البهاء زهير -عفا الله عنه- قوله:

صَديقيَ مَا هَذا الجَفَاءُ الَّذي أرى ... وَأيْنَ التَّغَاضِيْ[1] بَيْنَنَا والتَّعَطُّفُ

لَكَ الْيَوْمَ أَمْرٌ لا أَشُكّ يُرِيْبُني ... فَمَا وَجْهُكَ الوَجْهَ الَّذيْ كُنْتُ أعْرِفُ

لَقَدْ نَقَلَ الوَاشُونَ عَنِّي بَاطِلا ... وَمِلْتَ لِمَا قالوا وزادوا وَأَسرَفُوا

كَأَنَّكَ قَدْ صَدَّقْتَ فيَّ حَدِيْثَهُمْ ... وَحَاشَاكَ مِنْ هَذا وَخَلْقُكَ أشْرَفُ

وَقَدْ كان قَوْلُ النَّاس في النَّاسِ قَبْلَنَا ... فَفَنَّدَ يَعْقُوبُ وَسُرِّقَ يُوسُفُ

بِرَبِّكَ قل لي ما الَّذي قد سَمِعْتَهُ ... فإنَكَ تدري ما تَقُولُ وتُنْصِفُ

فإنْ كان قَوْلًا صح أني قُلْتُهُ ... فَلِلْقولِ تأويلٌ[2] ولِلْقَولِ مَصْرَفُ

وَهَبْ أَنَّهُ قولٌ من اللهِ مُنْزلٌ ... فَقَدْ بَدَّلَ التوراةَ قومٌ وَحَرَّفوا

فها أنا والواشِيْ وأنْتَ جَمِيعُنَا ... يَكُونُ لَنَا يَوْمٌ عَظيمٌ وَمَوقِفُ[3]

سِحْرٌ:

قال أبو الحسنِ الهاشميُّ ـ رحمه الله ـ:

وسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبيحِ الكَلا ... مِ كَصَوْنِ اللِّسانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ

فإنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ القَبِيـ ... ـحِ شَرِيكٌ لِقائِلِهِ فانْتَبِهْ

«أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٨٤).

---

(١) **التغاضي**: التفاضل.

(٢) **تأويل**: تفسير وتصريف.

(٣) «ديوان البهاء زهير» ص ٢١٤ .